وحدة الأمة الإسلامية

في ضوء القرآن والسنة[1]

تقديم

إن السبيل الوحيدة لقوة المسلمين، وانتصارهم على أعدائهم وتجاوز مشكلاتهم وأزماتهم، والحفاظ على وجودهم من الانهيار أو الذوبان، هي وحدة الأمة الإسلامية، أو اتحادها، في قضاياها العقدية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية والتربوية والإعلامية وغيرها.

وتشتد الدعوة إلى هذه الوحدة حينما تكثر الخلافات والنزاعات، ولا سيما في عصرنا الحاضر، للتخلص من مخاطر تحديات الأعداء وتدخلهم السافر في قضايا العالم الإسلامي، ومحاولة سيطرتهم على المسلمين بأساليب مختلفة، منها اللجوء إلى إضعافهم، ونهب ثرواتهم، واحتلال بعض دولهم، وتقسيمها إلى أجزاء ضعيفة، وإخضاعهم لنفوذ أو تحكم الصهاينة في العالم العربي، فيما يسمى بالشرق الأوسط الكبير ونحوه من المخططات الاستعمارية المعاصرة، ليتسنى للأعداء ضمان مصالحهم ومآربهم السياسية والاقتصادية تحت ستار ما يسمى بالعولمة أو الديمقراطية.

وكلما شعر المسلمون بضعفهم، واستجاب بعضهم لتحقيق خطط أولئك الأعداء، لم يجدوا سبيلاً لإنقاذهم إلا باللجوء للحل المتعين، ألا وهو

---

(١) بحث مقدم للاجتماع الأول للملتقى العالمي لعلماء المسلمين في رابطة العالم الإسلامي - مكة المكرمة، ٣-٥ ربيع الأول ١٤٢٧هـ/ ٣-٦ نيسان/ إبريل ٢٠٠٦م.

الوحدة القوية المحكمة أو القويمة المقررة جذرياً في صريح القرآن الكريم والسنة النبوية، انطلاقاً من قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَىْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّى عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿١٠﴾﴾ [الشورى: ٤٢/ ١٠] وقوله سبحانه: ﴿فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [النساء: ٤/ ٥٩]، فذلك وحده علاج الفرقة والاختلاف.

ومسوّغات أو منطلقات هذه الوحدة الإسلامية كثيرة، منها - أو أهمها - ما يأتي:

١- العقيدة الجامعة الواحدة.

٢- الشريعة الخاتمة الواحدة.

٣- الأخوة الإيمانية أو الإسلامية العامة.

٤- الآمال والآلام المشتركة (المصالح والغايات).

٥- تحديات الأعداء (المخاطر ورزايا التدخل).

٦- مفاسد ومحاذير المبادئ المضللة والشعارات الهدامة (القومية، العنصرية، القبلية، الإقليمية، الطائفية، المذهبية).

واجبات المسلمين لتجاوز الأزمة الحالية الخانقة

وجدير بالمسلمين قادة أو حكاماً، وشعوباً وجماعات وأفراداً، أن يبادروا لإنقاذ أمتهم من كل مشكلاتهم وقضاياهم أو أصعبها، للحفاظ على وجودهم واستقلالهم، وإلا كانوا مرتكبين للخيانة العظمى التي تلطخ تاريخهم بسمات المذلة والهوان، والتعرض للتشتت والضياع والانهيار، وطريق ذلك قوله تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾﴾ [يوسف: ١٢/ ١٠٨].

- العقيدة الجامعة الواحدة

إن أهم ما يدفع الأعداء أو غير المسلمين إلى الوحدة أو الاتحاد في أوربة وأمريكة والبلاد الشرقية سياسياً وعسكرياً واقتصادياً (الاتحاد الأوربي، الولايات المتحدة الأمريكية، روسية البيضاء - أو الاتحاد السوفييتي سابقاً، والصين، والهند، واليابان، ودول النمور السبعة)، إنما هو المصالح المادية المشتركة التي توفر لهم الرخاء الاقتصادي، أو التفوق والتقدم الصناعي والزراعي والتجاري.

أما العالم الإسلامي في المشارق والمغارب والذي يبلغ سكانه في آخر الإحصائيات ملياراً وثمان مئة وخمسين مليون نسمة (خمس العالم) فهو بالإضافة لضروريات الحاجة إلى النمو الاقتصادي، تجمع شعوبه عقيدة إلهية واحدة تدفعهم إلى التجمع والتفاهم والتعاون والاتفاق، وضرورة التلاقي السريع، عملاً بما هو مقرر في صريح القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾﴾ [البقرة: ٢/ ٢٨٥].

وهذا يعني أن الملة واحدة، والدين واحد، وهو أساس الترابط الوثيق، والتجمع السريع الذي عبر عنه القرآن الكريم في آيات كثيرة منها:

- ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴿٩٢﴾﴾ [الأنبياء: ٢١/ ٩٢].

- ﴿وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ﴿٥٢﴾﴾ [المؤمنون: ٢٣/ ٥٢].

- ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا﴾ [آل عمران: ٣/ ١٠٣].

- ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ٣/ ١١٠].

والأمة في اللغة العربية لها معان، منها - كما جاء في قواميس اللغة -

الجماعة، والقوم المجتمعون على أمر واحد، ومنها الطريقة والملة والدين، يقال: فلان لا أمة له، أي لا دين له ولا نحلة له، وقوله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ قال الأخفش: يريد أهل أمة، أي كنتم خير أهل دين.

والأمة هو في اللفظ واحد، وفي المعنى جمع، وكل جنس من الحيوان (ما فيه الحياة الحركية) أمة. وقوله تعالى: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ﴾ [الزخرف: ٤٣/ ٢٢] أي على طريقة تُؤم.

وتطلق الأمة أيضاً على الرجل الجامع لخصال الخير والمتفرد بها، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾ [النحل: ١٦/ ١٢٠].

ويقال لكل جماعة من جنس واحد، أو أصل واحد، أو دين: أمة، كالأمة العربية.

قال التهانوي: إن الأمة تطلق على الجماعة من أي جنس، ولهذا قالوا: الأمة جمع، لهم جامع من دين أو زمان أو مكان أو غير ذلك.

فكل جماعة من أصل واحد، وتجمعهم صفات موروثة، ومصالح وأمانيّ واحدة، يقال لهم أمة، أو يجمعهم أمر واحد من دين أو مكان أو زمان.

والمراد بالأمة في الآيتين الكريمتين: «أمة واحدة» أن ملة التوحيد أو الإسلام ملتكم ودينكم أيها المخاطبون، التي يجب عليكم أن تكونوا عليها، وهي ملة واحدة، غير مختلفة فيما بين الأنبياء.

قال صاحب الكشاف (الزمخشري): الأمة: الملة، وهو إشارة إلى ملة الإسلام، أي إن ملة الإسلام هي ملتكم التي يجب أن تكونوا عليها، يشار إليها بملة واحدة غير مختلفة[١]. وأيده الفخر الرازي في ذلك[٢].

وكذلك قال القرطبي: الأمة هنا بمعنى الدين الذي هو الإسلام، قاله ابن

(١) الكشاف: ٢/ ٣٣٦، ط البابي الحلبي بمصر.

(٢) التفسير الكبير: ٢٢/ ٢١٩، ط ثالثة، دار إحياء التراث العربي - بيروت.

عباس ومجاهد وغيرهما[١]، وهو الإسلام بالمعنى العام الشامل لجميع الديانات السماوية في أصولها الأولى الصحيحة، فكلها قائم على التوحيد، توحيد الله عز وجل، والآية دليل على وحدة الرسالات السماوية في أصولها، وعلى سوء تفرق الناس في أمر الدين، وانحيازهم عنه، وعلى وحدة السنن الإلهية في إثابة المؤمن الصالح العمل وتعذيب الكافر أو الجاحد المسيء، وعلى إثبات البعث والجزاء وما يشتمل عليه من شدائد وأهوال[٢].

وهذا ما ألمح إليه ابن عطية حيث فسر قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ﴾ بقوله: أي دعا الجميع إلى الإيمان بالله تبارك وتعالى وعبادته، ثم أخبر تعالى بعد ذلك أنهم اختلفوا وتقطعوا أمرهم[٣].

وإذا كان ملتقى البشرية والأمة الإسلامية على شأن الدين وأصول الإسلام التي هي أساس العقيدة وجوهر الرسالة الإلهية، هو نهج الناس جميعاً، فجدير بهم أن يلتقوا على منهج واحد، وطريق واحدة في شؤون المصالح الدنيوية التابعة لأصول العقيدة، لتصلح الدنيا والآخرة، وتتحد القلوب أو الأفئدة والأهواء على منهج الحق والرشاد والسداد، فتتحقق لهم سعادة الدنيا وعزها، ومجد الآخرة ونعيمها، فيكون الانبعاث الديني سبباً للانبعاث الحضاري الثابت والصحيح، لأن الحضارة التليدة أو الخالدة لا تقوم إلا على الجمع بين الماديات والروحانيات، ومن أخص الأولويات المادية والمعيشية الرغدة الهنية التابعة لوحدة العقيدة الجامعة وحدة الكلمة والصف والمنهج ووحدة جهود الأمة في صون كرامتها وعزتها واستقلالها وقوتها، ومجابهة أعدائها، وإعداد القوة المناسبة لقوة الآخرين: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ [الأنفال: ٨/ ٦٠] لأن العدو قديماً وحديثاً لا يفهم بغير لغة القوة ومنطق التفوق المادي بسبب الفراغ

(١) الجامع لأحكام القرآن: ١١/ ٣٣٨، ط دار إحياء التراث العربي - بيروت.

(٢) التفسير المنير، أ.د. وهبة الزحيلي ١٧/ ١٢٧-١٣١، ط دار الفكر بدمشق، ط أولى ١٤١١هـ/ ١٩٩١.

(٣) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: ١٠/ ٢٠٢، طبع أمير قطر.

العقدي والديني الصحيح، ولأن إعداد القوة يؤدي إلى إيجاد السلام وتوفير مناخ الأمن والاستقرار والهيبة، بل والاتجاه نحو الحوار، لأن كلمة الضعيف لا تسمع، حتى ولو قال حقاً، أو اعتمد على مقتضى العقل السليم والحكمة الرشيدة والموازين الصحيحة، أما القوي فهو الذي تسمع كلمته، وينصت الآخرون إلى قوله وفعله وتخطيطه، كما نلاحظ في كل زمان ومكان، ولا سيما في العصر الحاضر الذي اعتمد فيه أصحاب القوة والنفوذ والاستكبار العالمي والتقدم التقني والصناعي على شن الحروب المتلاحقة، حتى إن بعض هؤلاء من تجاوز كل الأعراف والمواثيق الدولية، وقضاء المحكمة الجنائية الدولية التي أنشئت حديثاً، بل أعفوا مواطنيهم من الخضوع لهذه القوانين والأنظمة الدولية، وهذا عين الظلم والتسلط.

- الشريعة الواحدة

الشريعة الإسلامية المشتملة على مختلف الأنظمة والقوانين الآمرة والناهية، والمحلية والدولية، والأخلاق المجردة الموضوعية من غير تحيز لبعض الناس دون بعض ولو من المسلمين، هي شريعة المسلمين قاطبة، وهي شريعة السمو والكمال والخلود، وهي صالحة لكل زمان ومكان، وهي الواجبة التطبيق على جميع المسلمين حكاماً أو محكومين أو جماعات وأفراداً.

ووحدة الشريعة في النظام كفيل بتوحيد المشاعر والعواطف والتصورات والأحاسيس، وجعل الحياة الخاصة والعامة قائمة على المنهج الواحد والنظام الأمثل والواقعي معاً؛ في السياسة والاقتصاد والاجتماع والتربية والثقافة والإعلام والمعاملات المدنية والجنائية والإجرائية والدستورية والإدارية والدولية والأسرية. وإذا اتحدت الأمة في هذا كانت أمة قوية مهيبة الجانب، ولم تكن بحاجة إلى الاستجداء أو التقليد إلا في الأمور النافعة والعلوم المتطورة.

إن الإلزام بتطبيق الشريعة الإسلامية المستمدة من القرآن الكريم والسنة النبوية واستنباطات المجتهدين الثقات وعمالقة الرأي والفكر النابع من أصول الشريعة ومقاصدها العامة، هو الظاهرة المقررة في الإسلام، لتتحد الأمة في مناهجها.

قال الله تعالى مبيناً كمال هذه الشريعة بقوله: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٥/ ٣] وما رضيه الله لنا فيه الخير والقوة والازدهار، ولا سيما وحدة الأمة من غير حاجة إلى كدح الذهن وإعمال العقل في الأصول.

والإلزام بتطبيق الشريعة شيء معروف ومعلوم من الدين بالضرورة من مجموعة نصوص شرعية كثيرة، منها قوله تعالى: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقُصُّ ٱلْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ﴾ [الأنعام: ٦/ ٥٧]، ومنها: ﴿وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ﴾ [المائدة: ٥/ ٤٩] ومنها: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٣٣/ ٣٦].

ونفى الله تعالى الإيمان عمن لم يحتكم إلى الكتاب والسنة أو لم يرض بحكم الله ورسوله في قوله: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾ [النساء: ٤/ ٦٥].

والإلزام بالشريعة الإلهية الواحدة هو لخير الأمة وسعادتها ولإنقاذها من تسلط الأعداء، فيكون هذا الإلزام سبباً لوحدة الأمة الإسلامية في المشارق والمغارب، وفي كل زمان ومكان.

ولا شيء أصدق من الواقع، فحينما تخلت الأمة الإسلامية عن هدي الله تعالى، هانت على الأعداء، وقبلت كل دخيل، واستهواها ما لدى الآخرين، ووقعت في حمأة الفرقة والتخلف والضياع، بل والاستبداد في أنظمة الحكم، واستيراد الأنظمة العلمانية التي تبعدها عن شرعة ربها، مما أفقدها تخلي الله تعالى عنها، فلم ينصرها الله في الأزمات والحروب وغيرها، ووقعت فريسة الاستعمار من جديد.

- الأخوة الإسلامية

لم نجد ديناً سابقاً قبل الإسلام أو مثله أو غيره من الأنظمة الوضعية جعل رباطاً محكماً ونسباً دينياً بين الناس كالإسلام، ألا وهو رابطة الأخوة الإيمانية الدافعة بقوة إلى الوحدة أو الاتحاد، وجعل الطاقات المبذولة يعود ميراثها ونفعها على الجماعة المسلمة، فقال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٠﴾﴾ [الحجرات: ٤٩/ ١٠].

قال القرطبي: أي في الدين والحرمة، لا في النسب، ولهذا قيل: أخوة الدين أثبت من أخوة النسب، فإن أخوة النسب تنقطع بمخالفة الدين، وأخوة الدين لا تنقطع بمخالفة النسب[1].

هذا النمط المشرِّف والمحكم بين المسلمين من أقوى البواعث أو الدوافع النفسية والمصلحية لتحقيق وحدة الصف والكلمة والمنهج والحياة بألوانها المختلفة ومتطلباتها المتنوعة والكثيرة.

وكلما استعصت الأمور والأحوال، وتعقدت المشكلات في علاقة المسلمين بغيرهم، لم نجد ملجأ أو ملاذاً لإنقاذ الأمة الإسلامية من الفرقة والضياع وتهديد المصالح إلا بالوحدة المبرمجة والداعية إلى التعاون البنّاء، واللقاء المستمر، وتكثيف الطاقات وتوحيد الجهود، والاعتماد على الذات، والاكتفاء بما لدى هذه الأمة من موارد ضخمة وإمكانات متنوعة يكمل بعضها بعضاً، بالإضافة إلى توافر الأدمغة البشرية الفعالة في مختلف المجالات، والتي تعمل في شتى أنواع معامل الصناعات المتطورة والأنشطة العلمية المتفوقة الغربية، والتي خسرها المسلمون مع الأسف الشديد، ولم يعمل قادتهم على استرداد هذه الطاقات والمواهب والاستفادة منها في البلاد العربية والإسلامية.

وأوضحت السنة النبوية الثابتة نسيج هذه الوحدة ومقوماتها الإيجابية، والابتعاد عن السلبيات القاتلة المنافية لها، في أحاديث توجيهية كثيرة.

---

(١) الجامع لأحكام القرآن: ١٦/ ٣٢٢ وما بعدها.

فهي كالجسد الواحد الذي لا يقبل التجزؤ أو الانفصال، وكالبنيان الواحد الذي يرفض التصدع أو الانهيار؛ لأنه كالإسمنت المسلح، فهي وحدة صلبة دائمة غير هشة ولا معرضة للسقوط، إن توافر الإيمان الصحيح، قال عليه الصلاة والسلام: «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً»[١]، «مثل المؤمنين في توادّهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى»[٢]. فالحديث الأول شبَّه المؤمن مع أخيه المؤمن بالبنيان الواحد غير القابل للتصدع، والحديث الثاني شبَّه المؤمن بالجسد الواحد الذي لا يقبل التجزئة أو التفكك.

وسدّ النبي ﷺ كل المنافذ أو الذرائع التي تصدِّع الوحدة أو تعصف بها، من تحاسد، وتناجش[٣]، وتباغض، وتدابر وتجسس وتحسس[٤]، والبيع على البيع أو السوم على السوم أو الخِطْبة على الخطبة، فقال الرسول: «لا تحاسدوا، ولا تباغضوا، ولا تجسسوا، ولا تحسسوا، ولا تناجشوا، وكونوا عباد الله إخواناً»[٥].

وفي رواية: «لا تحاسدوا، ولا تناجشوا، ولا تباغضوا، ولا تدابروا، ولا يبع بعضكم على بيع بعض، وكونوا عباد الله إخواناً. المسلم أخو المسلم لا يظلمه، ولا يخذلُه، ولا يحقِرُه. التقوى ها هنا - ويشير النبي إلى صدره ثلاث مرات - بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم. كل المسلم على المسلم حرام: دمه وماله وعرضه»[٦].

وفي غير الصحيحين عن أبي هريرة قال النبي ﷺ: «المسلم أخو المسلم،

---

(١) أخرجه الشيخان والترمذي والنسائي عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه.
(٢) أخرجه أحمد ومسلم عن النعمان بن بشير رضي الله عنهما.
(٣) التناجش: الزيادة في ثمن السلعة من غير رغبة في شرائها.
(٤) التجسس: التعرف أو البحث سراً عن الأخبار الخفية، ليبلغها الجاسوس إلى غيره. والتحسس: الاستماع لحديث القوم، أو تبصّره.
(٥) أخرجه الشيخان في الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه.
(٦) هذا لفظ مسلم.

لا يظلمه، ولا يعيبه، ولا يَخْذُله، ولا يتطاول عليه في البنيان، فيستر عليه الريح، إلا بإذنه، ولا يؤذيه بقُتار[١] قِدْره، إلا أن يغرف له غرفة، ولا يشتري لبنيه الفاكهة فيخرجون بها إلى صبيان جاره، ولا يطعمونهم منها»، ثم قال النبي ﷺ: «احفظوا ولا يحفظ منكم إلا قليل».

إن مقتضى الأخوة الإسلامية تعاون القوي مع الضعيف، والغني مع الفقير، وتقاسم الثروة والهموم، ومشاطرة الأحزان، والمشاركة في الأفراح، وتبادل التهاني، وإخلاص المودة، وإشاعة المحبة، وإيثار السلام والصلح والوئام، والبعد عن إثارة المنازعات، واجتناب كل ما يؤدي إلى توليد العداوات أو الخصومات، والترفع عن الطعون وألفاظ السباب والشتائم، والغيبة، والنميمة، وإلحاق الضرر أو الأذى بالآخرين، لأن «المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده»[٢].

- الآمال والآلام المشتركة (المصالح والغايات)

إن قضايا المواطنة، أي الانتماء إلى وطن إسلامي واحد وهو ديار الإسلام المختلفة، من مسلمين ومعاهدين، تتطلب بداهة المساواة في الحقوق والواجبات، والمشاركة في السراء والضراء، واحتمال ألوان الضرورة أو الحاجة في وقت الشدة، ودفع الضرر والأذى، والإسهام على السواء في وقت الرخاء، وتوفير الفرص المناسبة أو تكافؤ الفرص للجميع، عمالاً ومحرومين وأصحاب أعمال وحرفيين، ونساءً ورجالاً، وصغاراً وكباراً، وشيوخاً وكهولاً، وشباناً وفتياناً وفتيات، وأغنياء وفقراء.

كما تتطلب المواطنة الدفاع بشرف وإخلاص عن مصالح الأوطان، وطرد الأعداء المحتلين أو الغاصبين، ودحر المعتدين، صوناً للدماء والأعراض والأموال العقارية والمنقولة، ويكون التفريط بشبر من الأرض واستلاب الأعداء

---

(١) رائحة اللحم.

(٢) أخرجه مسلم عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما.

له خيانة لله والرسول، لقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [المنافقون: ٦٣/٨].

والمسالمة أو المعاهدة والصلح المؤقت أو المؤبد رهين بتوافر المصلحة الإسلامية من إشاعة الأمن والسلام والاستقرار وأداء الواجبات، وصون الحقوق والمكتسبات، وتحقيق المصالح المشروعة والغايات.

وكل ذلك يدخل في المصطلح القرآني وهو الولاء أو الموالاة، أي التناصر والتعاون وما أكثر الآيات القرآنية الداعية إلى موالاة المؤمنين بعضهم لبعض في وقت الرخاء ووقت الشدّة على السواء، قال الله تعالى: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾﴾ [التوبة: ٩/٧١] أي إن أهل الإيمان من الذكور والإناث متناصرون متعاضدون. وكان التعاون والتآزر بين المسلمين والمسلمات السمة البارزة للمجتمع المسلم في العهد النبوي وفي الخلافة الراشدة، وبنحو نسبي في العهود المتلاحقة، سواء في الميادين الدفاعية والمواقف الحاسمة كلها كالهجرة والجهاد، مع اعتصام الرجال بالعفة وغض البصر، واعتصام النساء بالأدب الجم والحياء والتعفف وغض البصر والاحتشام في اللباس والعمل وترك اللين في الكلام.

وذكر الله تعالى في هذه الآية خمس صفات لأهل الإيمان مع بعضهم، ليتميزوا عن المنافقين، وهي صفات حضارية رائعة، تشمل الدين والدنيا، والفضيلة، ومحاربة الرذيلة، وأداء الصلاة، وإيتاء الزكاة وإطاعة الله والرسول[1].

والموالاة بين المؤمنين والمؤمنات تتطلب ترك موالاة الأعداء، كما نهى الله تعالى عنه في آيات عديدة، منها: ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ

(١) التفسير المنير للباحث، المرجع السابق: ١٠/٣٠٣-٣٠٤.

وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨﴾﴾ [آل عمران: ٣/٢٨]، ومنها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ﴾ [الممتحنة: ٦٠/١].

والتاريخ يعيد نفسه، والوقائع والشواهد كثيرة من الماضي والحاضر على صحة أو مصداقية هذا النهج الرباني الصحيح، سواء كنا في حال القوة أو في حال الضعف أو الاستضعاف إلا في حدود التَّقية أو المداراة والمجاملة التي لا تتجاوز الحدود الحمراء، ولا تخترق أصول الحياة الإسلامية العزيزة النابعة من الحق الثابت كالجبل الأصم. وإن لنا في تاريخنا خير عبرة وعظة، سواء في حال القوة مع الحذر، كتاريخ الدولتين الأموية والعباسية، أو حال الضعف كما حدث في استنصار بعض حكام الولايات الإسلامية في الأندلس بالأعداء على مسلمين آخرين، مما أدى إلى طرد المسلمين من تلك البلاد أو قتلهم، أو تنصيرهم، أو تعذيبهم بعذاب وحشي لا يعرف الإنسانية ولا الوفاء للمعروف.

ولا طريق لنا لاسترداد حقوقنا المغتصبة في فلسطين والعراق وأفغانستان والشيشان وكشمير وكوسوفو والبوسنة والهرسك وغيرها من أجزاء القارة الآسيوية والإفريقية إلا بوحدة الصف، وجمع الكلمة، وقوة الإيمان، والإعداد الحربي الدفاعي المتطور للرد على اعتداءات أولئك الطامعين والحاقدين والمستكبرين والغاصبين.

- تحديات الأعداء ومخاطر الاحتلال والتدخل

لقد أسفرت أمريكة وحفاؤها من الغرب والشرق عن الوجه الأسود والبغيض والحاقد على العالم العربي والإسلامي، بغية السيطرة والنفوذ على المسلمين ومن يعيش معهم في ديارهم من قديم، ومن أجل صهيون، وحماية المصالح الإسرائيلية العنصرية والاستيطانية وتمرير مصالحهم أيضاً.

وظهر هذا الحقد بأشكال مختلفة، مرة بإعلان حرب صليبية جديدة، ومرة بالعمل على تكوين ما يسمى بالشرق الأوسط الكبير، لجعل «إسرائيل» هي

المتحكمة والمسيطرة على العرب من الخليج إلى المحيط، والمهيمنة على مصادر الثروة النفطية، وسرقة النفط مجاناً، ومرة بإعلان عقد أو تحالف بين اليمين المسيحي أو المتصهين والصهيونية العنصرية، وأحياناً بالتدخل في مناهج التربية والتعليم في البلاد الإسلامية، ومحاولة العبث بمصادر الثقافة الإسلامية والتاريخ العربي واللغة العربية، وتحريف القرآن الكريم، وإيجاد سبعة عشر جزءاً فيما أسموه بالفرقان.

وعصف الأمريكيون المستكبرون بكل الأنظمة والمواثيق الدولية وتدخلوا عسكرياً في بعض البلاد الإسلامية، واحتلوا أفغانستان والعراق، وهددوا بقية البلاد إما بالحرب والقصف والاحتلال، وإما بالخضوع للمخطط الاستعماري الجديد من غير حياء ولا شرف.

وأقيمت في أفغانستان والعراق أنظمة حكم هزيلة وخائنة بذرائع ما سموه مكافحة الإرهاب وهم صناع الإرهاب الدولي في فلسطين وهذه البلاد المذكورة، أو لنشر الديمقراطية والحرية ومكافحة الاستبداد، مثل حكم صدام حسين، بل إن أمريكة صرحت علانية بأنها ستتدخل في العراق ولو تنازل صدام عن الحكم.

وأصبح هناك مكيالان أو ميزانان مختلفان في سياسة أمريكة، حيث تقر بامتلاك (إسرائيل) خمس مئة قنبلة ذرية أو نووية، بل وتعطي أمريكة اليوم مئة قنبلة نووية أو ذكية من أجل ضرب إيران لعزمها على تخصيب الأورانيوم في بلادها، وتمنع روسية من تزويد سورية بالصواريخ للدفاع عن وجودها.

وكل هذه التحديات السافرة والاعتداءات المتلاحقة وغيرها من المخططات الاستعمارية، جعلت المنطقة العربية والإسلامية في خطر محقق. ونسمع كل يوم ما تفعله أمريكة من جرائم حرب إبادة في أفغانستان، وكذا في العراق من تدمير وتخريب وعصف بكل الثروات الحضارية وسرقة ونهب كنوزها، وضخ النفط لأمريكة بالمجان، فضلاً عما يلحقون بالمواطنين من جرائم الإبادة الإنسانية ومحاولات الارتداد أو التنصير، ومن ألوان التعذيب الوحشية والدمار في

البلدان والمنشآت، وفي السجون والمعتقلات سواء في بلادنا وأوطاننا كما حدث في سجن أبو غريب وغيره في العراق، أو في معتقلات الأسرى في غوانتنامو وغيرها. ومثل ذلك تماماً يحدث لآلاف الأسرى العرب في فلسطين في الكيان الصهيوني بما فيها الجرائم الخلقية والسلوكية.

هذه التحديات، وما ينجم عنها من جرائم ومخاطر ولصوصية وإبادة وتخريب، وقتل آلاف الأطفال والنساء والرجال في العراق وفلسطين وغيرهما، تعيد للأذهان ما فعلته محاكم التفتيش الأولى والثانية في أوربة، ومنها إسبانية في العصور الوسطى وما بعدها حتى القرن التاسع عشر، من جرائم وحشية وأساليب تعذيب وقتل وتنصير ضد غير الكاثوليك وضد المسلمين بقيادة البابا، وتطورت سريعاً إلى فرض الرقابة على الفكر والعقيدة وفرض العلمانية أو اللادينية على المتهمين بالهرطقة[1].

وأبسط ما يقال في جرائم الغربيين القدامى والمعاصرين في حق المسلمين بأنها نسف واستئصال لكل ما يسمونه حقوق الإنسان والمواطن، بل وحقوق الدولة المستقلة، لفرض الهيمنة الصهيونية والمسيحية المتطرفة على العالم العربي والإسلامي.

- محاذير ومفاسد المبادئ المضللة والشعارات الهدامة

لا نعلم عن الغرب الصليبي والصهيونية العنصرية إلا كل ما يلطخ جبين الإنسانية من إشاعة الفساد والدمار والقتل والتشريد والإبادة وهدم المنازل على رؤوس أصحابها، وقتل الوطنيين، وسفك دماء الأبرياء، وترميل النساء، وتيتيم الأطفال، وإعلان الفجور، واللجوء إلى اللصوصية، والمخططات الوحشية. سواء في مظلة ما يسمى بمقاومة الإرهاب، وتعطيل حق الدفاع أو المقاومة المشروعة، أو تصدير (العولمة) أو فرض نظام الديمقراطية الغربية العلمانية، وغير ذلك من الأضاليل، ومتابعة الحملة المسعورة على المسلمين.

---

(١) الموسوعة العربية الميسرة ٢/ ١٦٥٤.

وكان من نتائج احتلال العراق مثلاً على يد أمريكة وحلفائها، بحجة تطبيق الديمقراطية وتوفير الحرية والتخلص من الاستبداد، هو زرع الكراهية والأحقاد والتجزئة والطائفية والعنصرية وتقسيم الوطن إلى أجزاء أو ما يسمونه أخيراً بالولايات، وغرس الفتنة بين أهل السنة والشيعة والأكراد وبقية الأعراق والأقليات.

إن كل هذه العواقب الوخيمة التي صدّرها لنا الغرب في تاريخه الاستعماري القديم والحديث، وأشكال التفرقة المذهبية والعرقية والعنصرية والطائفية والقومية، والقبلية، والإقليمية الضيقة، لها أسوأ الأثر على مستقبل العالم العربي والإسلامي، وهي مرفوضة في الأعراف الدولية الصحيحة، وفي ميزان الحكمة والعقل الرشيد، وفي المعيار الإلهي الإسلامي الذي عبَّر عنه الحديث النبوي: «ليس منا من دعا إلى عصبية، وليس منا من قاتل على عصبية، وليس منا من مات على عصبية»[١].

واجبات المسلمين لتجاوز الأزمة الحالية الخانقة

إن من أبسط واجبات المسلمين التي أوجبها القرآن والسنة وما أجمع عليه السلف الصالح هي الواجبات المتفق عليها وهي ما يأتي[٢]:

الواجب الأول: إن أول الواجبات بمقتضى الأخوة العامة التي أثبتها الإسلام أن يبادر المسلمون إلى حل المنازعات الداخلية فيما بينهم دون اقتتال ولا صراع، ولا أطماع، وإنما بترفع وسمو عن الغايات الرخيصة، حتى يتم القضاء على مخططات التآمر الأمريكي المتطرف والصهيوني الغادر.

الواجب الثاني: اعتبار أي اعتداء على بلد إسلامي أو إقليم إسلامي هو اعتداء على جميع البلاد الإسلامية، فكل شبر من أرض الإسلام هو للمسلمين أجمعين.

---

(١) أخرجه أبو داوود عن جبير بن مطعم ﷺ، وهو حديث حسن.

(٢) الوحدة الإسلامية لأستاذنا الشيخ محمد أبو زهرة: ص٦١-٦٤.

الواجب الثالث: يجب على المسلمين قاطبة الذين يستضعفهم الأعداء أن يدافعوا بجرأة وقوة عن حقوقهم وديارهم ومقدساتهم، لأن الدفاع الشرعي أو المقاومة حق أصيل في النفس الإنسانية وفي كل الأعراف والشرائع والمواثيق الدولية المعلنة.

الواجب الرابع: يجب أن تكون ولاية المؤمنين لأنفسهم لا لغيرهم في السر والعلن، فلا نطمئن لمخططاتهم ووعودهم، ولا نتولى أعداء الإسلام في الداخل والخارج لأن الله تعالى قال: ﴿وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ [النساء: ٤/ ١٤١].

وإن العلمانية التي ينضوي بلوائها زعماء مشبوهون وعملاء خانوا أمتهم لن تجلب لهم ولا لغيرهم إلا الدمار والضياع، وقد أثبتت وقائع التاريخ المعاصر أن أمريكة وحلفاءها سرعان ما يغدرون بأنصارهم وأصدقائهم وأتباعهم بمجرد تغير المصلحة.

الواجب الخامس: يحرم على أي رئيس مسلم أن يجعل الثقة في رسم سياسة الدولة لغير مسلم، فذلك منهي عنه في صريح القرآن الكريم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ ۖ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾﴾ [آل عمران: ٣/ ١١٨].

هذه واجبات صريحة مجمع عليها، بل هي حقائق ثابتة، أكدتها الأحداث والوقائع القديمة والحديثة، فالعقلاء أو الحكماء هم الذين يعملون بها، والخونة أو الأدنياء والمأجورون هم الذين يعرضون عنها.

الخلاصة

إن الدعوة الرشيدة إلى وحدة الأمة الإسلامية في القرآن الكريم والسنة النبوية الثابتة، لهي الطريق المتعين للعالم الإسلامي من أجل الحفاظ على وجوده واستقلاله وحقوقه ومقدساته في كل بلاد المسلمين.

وهي العلاج الشافي للتخلص من آثار الفرقة البغيضة والتجزئة القاتلة، والتخلص من تحديات الغرب والشرق والصهيونية العالمية والعنصرية في فلسطين وغيرها.

فإذا لم تتحد أمتنا أو لم نتوصل إلى ما يشبه الاتحاد في السياسية والاقتصاد والاجتماع والتربية والثقافة والإعلام، تعرضنا لكل أنواع الضياع والشتات والدمار، فإن مسوغات أو منطلقات الوحدة الإسلامية لا نظير لها عند الأمم والشعوب الأخرى، لكنه مع الأسف الشديد يتجه العالم المعاصر إلى الوحدة أو الاتحاد، ونحن نتجه على العكس إلى الفرقة والاختلاف.

وهذه المنطلقات كثيرة منها العقيدة الإلهية الجامعة الواحدة، والشريعة الخاتمة الواحدة، والأخوة الإيمانية العامة، والآمال والآلام المشتركة، والوقوع فريسة تحديات الأعداء، ولمس المفاسد والأضرار لكل مخططات الغرب والشرق ومستنداتها من الاعتماد على القوميات والعنصريات والقبليات والإقليميات والطائفيات والمذهبيات ونحوها.

وعلى المسلمين المبادرة إلى تفويت الفرصة على لآخرين الحاقدين، والقضاء على النزعات المحلية، وصد العدوان الخارجي من جميع أبناء الأمة، والتخلي عن موالاة الأعداء وقبول مخططاتهم، وعدم الاطمئنان لصنائع الغرب العميلة أو الخائنة بنحو مقطوع به، حباً من بعض الفئات بالاستيلاء على السلطة، وهي سلطة زائفة مأجورة ورخيصة وهزيلة.